كليـــة الامـــام الأوزاعـي
للدراسات الإسلامية
بيروت – لبنان

البيت الطرابلسـي في العهـد المملوكـي

(بحث تمهيدي لمرحلة الماجستير في الدراسات الإسلامية)

إعداد الطالبة
جومانة ديب بغدادي

إشـــراف
الدكتور عباس صباغ

1426هـ / 2005م

الإهـــــــداء

الى التي رعتني وكانت لي عونـاً وسـنداً

إلى أمـي...

المقدمـــة

اهتم الإنسان منذ القدم بتأمين المسكن له، لحماية نفسه من العوامل الطبيعية، والحيوانات البرية، ولتأمين الراحة والخصوصية، فسكن المغاور والكهوف ومن ثم قام ببناء البيوت الخشبية والحجرية. ومع الأيام ازداد اهتمامه بتجميل البيت، فاختلفت وتنوعت أشكال البيوت. وكان لكل بيئة نماذج خاصة بها تتوافق وظروفها المناخية والطبيعية. فاستخدم الإنسان أساليب معمارية فطرية لمقاومة قسوة المناخ، وهذه الأساليب هي نتاج التفاعل بين عنصرين أساسيين: الأول هو الثروات الطبيعية من المواد الخام المتوفرة في البيئة، والثاني هو المناخ السائد في المنطقة وذلك في وجود أنشطة معينة تمارس داخل وحول هذه المباني، وفي إطار هيكل اجتماعي يؤثر في أساليب التصميم.

إن فكرة التصميم البيئي في العمارة ليست بجديدة، بل يمكن ملاحظتها أيضاً في مأوى الكائنات الأخرى كالحشرات والطيور والثدييات الصغيرة، فلقد أودع الله في العنكبوت مهارات خاصة، تمكنه من نسج الخيوط بأسلوب هندسي حاذق وبأشكال مختلفة تتناسب مع طبيعة المكان الذي ينسج فيه بيته، كما أوحى الله سبحانه وتعالى للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرش الإنسان، وبيوت النحل هذه محكمة في غاية الدقة والإتقان في تسديها ورصها، فيستطيع بالشكل المسدس هذا إقامة أكبر عدد من الخلايا في أقل مساحة متاحة.

بالإضافة الى تأثير البيئة هناك المؤثرات الدينية، التي أعطت العمـارة ميزات خاصة بها، فكان للشريعة الإسلامية تأثيرهـا علـى العمـارة، فجاءت متميزة عن سائر الطرز المعمارية الأخرى. ولأهميـة المـأوى بالنسبة للإنسان وارتباطه بالشريعة، حاولت من خلال هـذه الدراسـة إلقاء نظرة على نموذج من البيوت الإسلامية التي تعـود الـى العهـد المملوكي، ومميزات تلك البيوت التي كانت تتوافق مع الشريعة، مقارنةً بها البيوت الحديثة التي طغى عليها النموذج الغربي، إلا إن ذلك لم يكن بالأمر السهل وخصوصاً ان تلـك البيـوت أصـبحت شـبه معدومـة والدراسات حولها قليلة، فإن أي تقصير يعود لهذه الأسباب ولأسـباب أخرى فهذا البحث هو الأول لي فأعتذر لعدم تمكني من إعطاء الدراسة حقها، وأتقدم بخالص شكري لكل من قدم لي العون في سـبيل إخـراج هذا العمل الى حيز النور، وأخص بـشكري الـدكتور عبـاس صـباغ والدكتور عبد الغني عماد الذي لـم يبخـل فـي تقـديم المـساعدات الأكاديمية.

أرجو من ا   العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت.

وعلى ا   قصد السبيل

القسم الأول

لمحة عن تاريخ طرابلس والمرحلة المملوكية

تعتبر مدينة طرابلس اللبنانية او طرابلس الشام على حد تسمية مؤرخي العرب تمييزاً لها عن طرابلس الغرب، من بين المدن العربية الهامة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى، وقد ساعد موقع هذه المدينة في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط تقريباً، بالإضافة الى أمكاناتها الإقتصادية الوفيرة، على الازدهار الحضاري الذي أصابته في العصر الإسلامي، وعلى المكانة الرفيعة التي تبوأتها هذه المدينة العظيمة بوجه خاص في عصر دولتي المماليك البحرية والشراكسة.

وقد وصفها ابن بطوطة في القرن الـ 8هـ / 14م في رحلته بقوله:" هي إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام تخترقها الانهار، وتحف بها البساتين والأشجار، ويكتنفها البحر بمرافقه العميقة، والبر بخيراته المقيمة، ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء واما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر

وتملكها الروم[1] زمناً فلما استرجعها الملك الظاهر[2] خربت واتخذت هذه الحديثة"[3].

تجد مدينة طرابلس، عاصمة منطقة شمال لبنان، جـذورها العميقـة القدم في تاريخ عريق، يزيد على ثلاثة آلاف سنة. وهي متحـف فنـي غني بالمعالم والمراكز الأثرية المتعددة العهود والحضارات المتتالية.

أسس الفينيقيون في القرن السابع قبل الميلاد، مدينة طرابلس علـى امتداد الشاطئ الشمالي الشرقي لشبه جزيرة الميناء، وأطلقـوا عليهـا إسم "آثر"، وكانت تتألف يومئذٍ من ثلاثة أحياء ضربت حولها الأسوار.

أخذت طرابلس اسم المدينة المثلثة "تريبوليس"، ومن بعـدها عربهـا الفاتحون ولم تلبث طرابلس مع الأيام، لأهمية موقعها الاسـتراتيجي أن أصبحت عاصمة الإتحاد الفينيقي، ومقراً لمؤتمره السنوي العام الـذي كان يضم ممثلين عن سكان جميع المدن الفينيقية[4].

كانت طرابلس تابعة للامبراطورية البيزنطية خـلال الفـتح العربـي الاسلامي. وهناك روايتان حول فتح طرابلس: الأولى نجدها في كتـاب "فتوح الشام" المنسوب للمؤرخ الواقدي المتوفي سنة 207هـ ـ/822م. فقد جاء فيه ان فتح طرابلس تم على يد راهب مسيحي من حلب يدعى "يوقنا" اعتنق الاسلام وصار يعرف بعبد ا ، وأن الفتح كان عن طريق خدعة قام بها[5].

إلا إن هذه الرواية غير معتمدة عند المؤرخين.

---

[1] صحتها الصليبيون.

[2] صحتها الملك المنصور قلاوون.

[3] عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1981م، ج2، ص507.

4 عمر تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، دار البلاد، لبنان، ط1، 1978م، ج1، ص19- 20.

5 عمر تدمري: المرجع السابق، ص62.

كانت طرابلس تفوق معظم مدن الشام بقوة تحصيناتها، والبحر يوفر لها الحماية الطبيعية من جهات ثلاث، يحميها خندق عظيم وأسوار عالية من الجهة الشرقية المطلة على التلال. وقد لعبت مجموعة الجزر قرب شاطئها دوراً كبيراً في تأمين المؤونة والاتصال أثناء حصارها.

بقيت طرابلس آخر معقل للبيزنطيين في سواحل الشام فكان لا بد من فتحها، فوجه معاوية القائد سفيان بن مجيب الأزدي لفتحها، في خلافة عثمان بن عفان، فحاصرها وناوش حصونها الثلاث فلم يستطع فتحها. أشار عليه معاوية ببناء حصن قريب منها يأوي اليه ليلاً وينطلق منه غازياً في النهار.

بنى سفيان الحصن وشدد الحصار واستعان بالكثير من الصبر والحنكة، وقطع الامدادات عنها حتى رضخت. وقد أشعل الروم النار في جنباتها عند هروبهم وكان ذلك عام 25هـ/646م [1].

في عهد الدولة الأموية، كان اهتمام معاوية بطرابلس بصورة خاصة، لكونها الميناء الطبيعي لمنطقتي دمشق وحمص، ولكونها قريبة من جبال الأرز حيث يسهل استغلال أخشابها في صناعة المراكب. وقد استعان بغير العرب من الروم والفرس واليهود لإعمارها، وقد كان يوجه اليها في كل عام جماعة كثيفة من الجند المسلمين يشحنها بهم ليدفعوا عنها العدو في حال إغارته عليها. وولى عليها عاملاً من قبله. وكان يستبدل هذه القوة مرتين في العام الواحد لتظل معنويات الجند مرتفعة[2].

[1] عمر تدمري: المرجع السابق، ص 68 ... 70.
[2] عمر تدمري: المرجع السابق، ص72- 73.

بعد سقوط الدولة الأموية، دخلت طرابلس في فلك الدولة العباسية وأصبحت تابعة لإمارة عبد ا بن علي سنة 132هـ. واستمر تعيين الولاة عليها الى جانب تعيين قائد للجند، كما كان متبعاً في الدولة الأموية[1].

ظلت طرابلس تابعة للدولة العباسية حتى سنة 264هـ/778م. حيث دخلت في حوزة "أحمد بن طولون" الذي أسس الدولة الطولونية في مصر، وقام في هذه السنة بضم بلاد الشام اليه وانتزعها من الخليفة العباسي "المعتمد" . وفي سنة 292هـ/904م سقطت الدولة الطولونية[2].

وقد كان لطرابلس دور كبير في فتوحات العرب البحرية وغزواتهم، وظلت البحرية في ميناء طرابلس تشكل قوة رادعة للدفاع عن ساحل الشام، واستعصت المدينة على أباطرة الدولة البيزنطية الذين جاؤها بأنفسهم، وقاومتهم لوحدها من بين كثير من مدن الشام التي استسلمت لهم، وكان أول أولئك الأباطرة "نقفور فوكاس"، الذي جاءها وهي تابعة للدولة الأخشيدية[3] .

بعد سقوط الدولة الأخشيدية سنة 358هـ/969م وقيام الدولة الفاطمية خضعت طرابلس للفاطميين وتابعت مقاومتها لأباطرة البيزنطيين.

كانت طرابلس في ذلك الوقت إمارة مستقلة في ظل حكامها من أسرة بني عمار، وحافظت على استقلالها في ظل الموجة السلجوقية، التي غمرت معظم بلاد الشام وحاولت احتلال طرابلس أكثر من مرة .

[1] عمر تدمري: المرجع السابق،ص119.
[2] عمر تدمري: المرجع السابق، ص140.
[3] عمر تدمري: المرجع السابق، ص174.

كذلك حافظ بنو عمار على استقلال إمارتهم عن الفاطميين، منذ أعلنـوا ذلك على لسان أمين الدولة أبو طالب (462 هـ).

كان أمراء بني عمار أسرة من العلماء والحكمـاء، اشـتهروا بالعـدل والتسامح ورحابة الصدر والمرونة، وكانوا ألمع أمراء العرب وأوسعهم جاهاً وثراء، فعرفت المدينة في أيامهم مرحلة من الطمأنينـة والهنـاء والمسرة والازدهار، مما حمل بعض المناطق الساحلية على الانـضمام الى طرابلس طلباً للعدالة التي بلغت ذروتها وللازدهار الذي بلغ أوجـه في مرافق العمران، والاقتصاد، والزراعة، والصناعة ولا سيما صناعة الورق الذي كان متفوقاً في جودته.

وفضلاً عن ذلك كله، كان أمراء بني عمار يحيطون العلمـاء والأدبـاء بالعطاء والتكريم، فارتفع مستوى العلم والثقافة، وبلغ أوجـه بإنـشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها في ذلك الزمان، واعتبرت من أرقى المكتبات العربية قاطبة، إذ كانت تحتوي على أكثر من تسعمئة الف مجلد، تبحث في شتى المواضيع العلمية والادبية، كتبت جميعهـا بـالخط اليـدوي، وكانت قيمتها لا تقدر بثمن مما حدا بأشهر الأدباء والـشعراء العـرب وغيرهم الى قصد المدينة، وزيارة مكتبتها التي ذاع صيتها حتى سميت: دار العلم[1].

وصلت أولى الحملات الصليبية الى بلاد الشام عام 491هـ/1097م، في وقت ساد فيه التفكك والصراعات والضعف، حيث توزعت المدن بين حكام وأمراء يخشى كل منهم الآخر ويكيد لـه. فاسـتطاع الـصليبيون دخول بلاد الشام، واحتلال القسم الساحلي بكامله، ومن ثـم الاسـتيلاء

[1] عمر تدمري: المرجع السابق، ص23.

على بيت المقدس (492هـ - 1099م)، وهو ما عجز عنه البيزنطيون في جميع حملاتهم منذ الفتح العربي الاسلامي.

وقد بدأت الحملات الصليبية على طرابلس مـع الكونـت "ريمـون دي تولوز" المعروف بالمصادر العربية بـ"لكن اصطبل الصنجيلي" الذي قاد ثلاث حملات متتالية على المدينة باءت بالفشل.

تتابعت الحملات على المدينة، إلا انها قاومت الحصار الصليبي وهجمات الحملات المختلفة مدة عشر سنوات.

وعندما دخلوها، قتلوا من فيها ودمروا وأحرقوا معالمها وطال حقـدهم المكتبة الشهيرة المعروفة بدار العلم او مكتبة بني عمـار، فأحرقوهـا كاملة وكان ذلك بين سنة 502 و 503 هـ (1109م – 1110م)[1].

لم تتوقف المحاولات من قبل العرب، لاسترجاع مدينة طرابلس، حتـى فتحت المدينة على يد السلطان المنصور قلاوون عـام 1289م، الـذي جعلها عاصمة لنيابة السلطنة، وأصبح أسـمها فـي زمـن المماليـك "المملكة الطرابلسية الشريفة المحروسة".

فبعد إستيلاء السلطان المنصور على المدينة، أمر بتدمير ما تبقى منها ودكّها للأرض وتخريب سورها، وموقع هذه المدينة في الميناء، وهـي منطقة معروفة بالخراب حتى الآن، بالرغم من مرور سبع قرون علـى طرد الصليبيين.

وهكذا فإن إجلاء الصليبيين عن طرابلس أقترن بتدميرها، وكان هذا الفتح نقطة تحول في تاريخ المدينـة، إذ انـدثرت المدينـة الفينيقيـة القديمة، لتقوم بعد ذلك المدينة المحدثة بالقرب من قلعة "صنجيل" على

[1] عمر تدمري: المرجع السابق، ص318.

بعد ميلين من المدينة القديمة المدمرة، في وادي يعرف بوادي الكنائس على ضفتي النهر، وكان هذا رأياً عسكرياً جيداً، لحماية المدينة الجديدة من هجمات الأساطيل البحرية، وأول بناء شاده هو الجامع الكبير الذي اطلق عليه اسم "الجامع المنصوري الكبير" نسبة للـسلطان المنـصور قلاوون، وقد أقيم له أربعة أبواب كل منها يطل على حي مـن أحيـاء المدينة الجديدة[1].

وهكذا فإن المدينة القديمة هي مدينـة مملوكيـة صـرفة بعمرانهـا، وعماراتها، وخططها، ونظام بنائها، وأسـواقها، وأزقتهـا وبتأسـيس مساجدها، ومدارسها، وزواياها، وتكاياهـا، وحماماتهـا، وقياسـرها، وبتوزيع أبراجها، وبواباتها وأسبل مياهها، ومارستانها وخانقاها....

إن كثافة المساجد والخانات وما يتبعها، الموجودة في طرابلس ليس لها مثيل في المدن اللبنانية، بل إن ذلك يجعل من طرابلس مدينة فريدة من نوعها في العالم.

ثم إن طرابلس تنفرد بين جميع المدن اللبنانية بوجود الخانقـاه، بيـت الزهاد، الذي جمع بين الوظيفتين الدينيـة والحربيـة، ففيـه تنقطـع الصوفية للاعتكاف والعبادة، ويخرجون في طليعة المقـاتلين، عنـدما تستدعي الحاجة للدفاع في سبيل ا .

وهكذا عادت طرابلس الفيحاء، مدينة عربية اسلامية، وثغراً صـامداً من ثغور العروبة والاسلام بعد أن أقـام بهـا الـصليبيون 180 سـنة ميلادية (185 عاماً هجرية)[2] ، دمرت فيها كل معالم طرابلس القديمـة،

---

[1] محمد كامل بابا: طرابلس في التاريخ، حققه فضل المقدم وعمر تدمري، جروس برس، لبنان، ط1، 1995، ص 82... 90.

[2] عمر تدمري: المرجع السابق، ص426.

لتحيا مع العروبة والاسلام بحلة جديدة، فاستحقت عن جدارة لقب "قلعة العروبة ومدينة العلماء".

القسم الثاني

خصائص العمران الاسلامي والمملوكي

الفصل الأول: مفهوم العمران الاسلامي والمدينة في الاسلام

واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخـذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء ا ولا تعثـوا في الارض مفسدين [1].

من خلال هذه الآية، والعديد من الآيات الأخرى، والأحاديث النبوية نجد تأكيد على الصلة الوثيقة بين الاسلام وعمارة الارض، كما أعطـت من جانب آخر، بالإضافة لاجتهاد الفقهاء، معايير عامة شـكلت العديـد من الجوانب التطبيقية يلتزم بها المسلمون في عمارة مدنهم ومبانيهم[2].

فلم يكن في بلاد العرب قبل الاسلام، الكثير مـن المبـاني والعمـائر المميزة، مثل تلك التي كانت موجودة في الحضارة المصرية القديمة، او كالتي اشتهرت في الحضارتين الإغريقية والرومانية ، وكانـت الكعبـة المكرمة -على الرغم من بساطة مبناها- شهرة ومكانة تفوق أي مبنى معماري آخر[3].

وبظهور الاسلام، كان التركيز في البدايـة علـى تكـوين الجماعـة المسلمة، وتأصيل عبادة ا ، وعقيدة التوحيد فـي نفـوس المـسلمين

---

[1] الاعراف، الآية 74.
[2] يحيى وزيري: العمارة الاسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 2004، ص27.
[3] يحيى وزيري: المرجع السابق، ص20.

الآوائل، وغاب على الجماعة الإسلامية في هذه الفترة البساطة، وخشونة العيش، والتفرغ لنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يعرف عن العمارة في ذلك العهد سوى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وتم بناؤه من اللبن وتسقيفه بجذوع النخل، وأتت مساجد الإسلام الأولى على النمط نفسه من البساطة كمسجدي البصرة والكوفة[1].

وعندما استقرت دعائم الدولة الاسلامية، إنعكس ذلك على الفنون والعمارة. فالعمارة الإسلامية تنتمي إلى الحضارة الإسلامية، لأن العمارة من أهم مظاهر الحضارة. والإسلامية منها ثمرة من ثمار الإسلام بل نتاج حضارة الإسلام والمسلمين جميعاً. أسهمت في إنشائها وتطويرها الشعوب الإسلامية في أقاليم الإسلام، من مشرقها الى مغربها[2].

لقد بذل المسلمون جهودهم في كافة العهود والأقاليم لإعمار المدن، وإشادة البنيان، خدمة للعقيدة، وتلبية لحاجات الحياة.

ولم يدخروا وسعاً في تزيين العمائر وتجميلها، وتوفير أسباب الراحة والرفاه. معبرين عن فطرة الإنسان في ميله للزينة وحبه للفن.

وتخلّف عن هذه الجهود تراث ضخم في كميته وتنوعه، غني بقيمه، إنتشر على مدى من الأرض لم تبلغها أية حضارة أخرى، وعلى فترة زمنية بلغت قرابة أربعة عشر قرناً. وهذا التراث اليوم موطن فخر واعتزاز أهله، وموضع إعجاب وتقدير وأهتمام من الأمم الأخرى، لا سيما منهم، أهل العلم والثقافة والاختصاص.

---

[1] يحيى وزيري: المرجع السابق، ص21.
[2] عبد القادر الريحاوي: قمم عالمية، منشورات وزارة الثقافة السورية، سوريا، 2000م، ج1، ص31.

تأثرت الحضارة الإسلامية في طور نشأتها بالحضارات السابقة، فكانت ظاهرة الاقتباس وتمازج الثقافات، وهي ظاهرة صحية محمودة، لأن من مزايا الانسان المتحضر أن يفيد من مكتسبات الاخرين، ويأخذ عمن تقدموه، ثم يثابر فينتج ويبتكر.

ومع توالي العهود وتقلب الدول، تتطور العمارة الاسلامية، وتستمر محاولات التجدد والابتكار، وتغيب شيئاً فشيئاً العناصر المقتبسة أو تتبدل، لتحل محلها عناصر جديدة، نجد آثارها في الثروة الهائلة من الأشكال التخطيطية والعناصر المعمارية والزخرفية التي يزخر بها التراث المعماري الإسلامي، مما يؤكد أصالة العمارة الإسلامية ويوطد شخصيتها المتميزة.

ويعتبر الحاكم والفنان هما سببا عوامل التطور والتجديد في العمارة الاسلامية[1]، فكان التنافس بين حكام المسلمين على البناء والإعمار، ويتجلى ذلك بشكل خاص في الحماس لإنشاء المدن والحواضر وإعمارها او بتزويدها بمنشآت جديدة تحمل اسماءهم.

والمعمار والفنان، أصحاب الشخصية التي صقلتها الثقافة الإسلامية بكل أبعادها، استهانا بالجهد والوقت وعملوا بطموح لا حد له متنافسين على خلق شيء جديد لم يكن معروفاً من قبل.

تميزت الحضارة الإسلامية، بتنوع المدارس الفنية، فكان ذلك طبيعياً لاختلاف الأقاليم الإسلامية من حيث التقاليد الموروثة او من حيث الطبيعة والمناخ ومواد البناء، او الى التطور الزمني وارتقاء الأذواق

[1] عبد القادر الريحاوي: المرجع السابق، ص37.

والمفاهيم والخبرات، او الى ظهور حاجات جديدة ثقافية او صـحية او تجارية.

أخذت قضية بناء السكن وتطويره الكثير من إهتمام الإنسان، فـي كـل زمان ومكان. وكان الهدف من وراء تلك الجهود المبذولـة فـي هـذا الصدد، تحقيق حاجة الإنسان في الحصول على البيت الذي يـوفر لـه الأمن والراحة والاستقرار. ثم سعى بأن يجد فيه كذلك الرفاهية والجمال وكان تحقيق هذه الأغراض يختلف باختلاف الزمان والبيئة ومـستوى الفرد، من حيث الفقر والغنى. لكنه يعبر دائماً عـن المظهـر الثقـافي والحضاري للأسرة والمجتمع، فهو الخلية الأساسية للمدينـة ومحـور نموها وتنظيمها وتطورها.

كان طبيعياً أن يتأثر البيت العربي بالدين الجديد، كما تـأثرت العمـارة والفنون وأسلوب الحياة. فالبيت التقليدي، المنفـتح نحـو الـداخل، ذا الفناء والحجرات المحيطة بـه، يلائـم مبـادئ الإسـلام واتجاهاتـه الاجتماعية والدينية، وخاصة ما يتعلق منها بالمرأة.

الفصل الثاني: حرمة المنزل دينياً وفقهياً

إن الإسلام قد أعطى الفرد كامل الحرية في إتخاذ المسكن الذي يراه مناسباً له، ما دام لم يضر بالآخرين او يتعسف في استعمال حقه في التملك. فللمنزل حرمة معينة وحصانة خاصة يجب إحترامها وعدم التعدي عليها، فتردع مطلق انسان من الاعتداء عليه او اقتحامه او دخوله بدون استئذان صاحبه، وفي هذا يقول ا جلّ جلاله في القرآن الكريم:

يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم، وا بما تعملون عليم [1].

وهكذا أمر ا عز وجل بالإستئذان عند دخول مساكن الغير، كما حرم الدخول اليها في غياب أصحابها، وبينت السنة النبوية الشريفة العلة في طلب الاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين. إذ جاء رسول ا صلى ا عليه وسلم رجلاً تتوقف قبالة الباب فرآه النبي فقال له: "إنما جعل الاستئذان من اجل البصر"[2].

وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي توجب على المسلمين عامة الالتزام ببعض المبادئ الاخلاقية:

ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً [3].

---

1 سورة النور، الآيات 27- 28.

2 صحيح مسلم، ج6، ص181.

3 سورة الحجرات، الآية رقم 12.

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً [1].

وعن معاوية رضي ا عنه: سمعت رسول ا صلى ا عليه وسـلم يقول :

"انك ان اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت ان تفسدهم"[2].

ويقول عليه الصلاة والسلام:" من كان يؤمن با واليوم الآخر فلا يؤذ جاره"[3].

" يا معشر من آمن بلسانه ولم يـدخل الايمـان فـي قلبـه لا تغتـابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع ا عورته يفضحه ولو كان في بيته".

فأحكام الشريعة تمنع التعدي على الآخرين وخاصة على حرمة الجار، وهناك العديد من الكتب الفقهية التي تتناول في أبوابها ضرورة الحفاظ على الجيرة وآدابها، لان المسلمين جميعاً أخوة، ولكل منزل حرمته.

فقد نهى الإسلام عن التنصت والتجسس على بيوت ومساكن الآخـرين بأي وسيلة من الوسائل، لما في هذا المسلك الشائن من انتهاك لحرمـة المساكن ومعرفة أسرارها وأسرار أصحابها مـن جهـة، ولمخالفتـه للأخلاق الحميدة التي أمر بها الإسلام من جهة أخرى.

---

[1] سورة الاحزاب، الآية رقم 58.
[2] رواه ابن حبان.
[3] صحيح مسلم، ج1، ص49.

الفصل الثالث: الحارات والتضامن العائلي والاجتماعي:

كان الجامع المنصوري الكبير، على ما يبدو من الخريطـة القديمـة للمدينة، النقطة المركزية التي أستقطبت الأسواق والحارات حيث بـدأت تنشأ حوله، في الوقت الذي تم فيه بناؤه على الصورة التـي لا يـزال عليها الى اليوم. ومن ثم بدأت كل حارة او محلة تنهض على شكل أزقة تتفرع من مجرى السوق الأساسي، إما لتتصل بـسوق رئيـسي آخـر يتوازى مع السوق الذي بدأت منه، او تشكّل مع زقاق آخر زاوية تصنع من نفسها ساحة تصغر او تكبر على قدر عدد الأزقة، حسب المـساحة المتشكلة من تقاطعاتها.

يكاد المسجد (الجامع) أن يكون الأصل في بناء المدينة فمن حوله تشاد الأسواق والحوانيت وتتركز في محيطه جميـع الأنـشطة الإجتماعيـة والأقتصادية وحتى الدينية، ليـضم رجـال الـدين والعلمـاء والتجـار الحرفيين.

إستمرت هذه الحارات المنشأة على جوانب الجامع الكبير، بالامتداد في كافة الاتجاهات التي تسمح بالتمدد، ولحق بكل حارة المنشآت الأساسية والضرورية، التي تشكل النسيج الذي ترتسم عليه العلاقات الاجتماعيـة اليومية، وهي الجامع والمدرسة وسبيل المياه، الملحقة جميعاً بالسوق الذي يشكل عصب الحياة الاقتصادية لأهل الحارة ومصدر عيشهم[1].

ونجد إن المحلات (ج.محلّة) كانت مكتفية بذاتها في نمط حياتها، وفـي حركة التفاعل اليومي في قضايا الانتاج والاسـتهلاك والـسكن، وفـي شؤون الممارسة اليومية للايمان الديني، فنجد فـي المحلـة الواحـدة

[1] مها كيال و عاطف عطية: تحولات الزمن الأخير، مختارات ش.م.م.، لبنان، ط1، 2001م، ص58 – 59.

الدكاكين التي تؤمن لساكنيها كل احتياجاتهم، وتقارب المسكن مع أماكن العبادة، فيستطيع المرء ان يقوم بالتجارة والبيع دون ان يؤثر ذلك على تأديته للفرائض الدينية، وحتى المدرسة كانت ملاصقة للمـسجد، ولـم تكن الحمامات معروفة داخل المنازل، فكانت الحمامات العامة منتـشرة في المحلات، وكان لها صلة بالدين، فقد حث الإسلام علـى النظافـة، فكانت تستقبل الرجال وخصصت أوقات أخرى للنساء.

لقد كان السكن في محلة او حارة من حارات المدينـة، يعطـي الفـرد الشعور بالقوة والانتماء الى اطار مميز، بما يعزز الـشعور بالتـضامن الاجتماعي.

للأحياء السكنية في المدينة الإسلامية خاصتان هامتان: ترابط العلاقـة بين أماكن السكن والفوارق الدينية العرقية، وميل أبناء الدين الواحد أو المحلة الواحدة الى التجمع معاً والإقامة في حي واحد، من أجل التماسك والاستقلال النسبي.

فنجد إن المناطق او الأحياء كانت تسمى باسم دينـي معـين او باسـم صاحب حرفة او مهنة معينة (حارة النصارى ، حارة اليهـود، حـارة النحاسين، حارة الحدادين).

والأحياء الخارجية او الضواحي، كانت تشكل مناطق للقوافل وللوافدين الجدد والغرباء، وتقع على أطراف المدينة وخارج بوابات المدينة.

كانت العائلات تقيم في بيت واحد ولا ينفصل فيها الفرد، هو وأسـرته، عن عائلته، إلا عندما يصبح البيت العائلي غير قادر على سـعة كافـة أسر العائلة. ففي هذا البيت كان الأب هو المسؤول الفعلـي عـن إدارة شؤون أسرته إجتماعياً واقتصادياً. ويعيش في كنفه الأبناء وزوجـاتهم

اللواتي هن أيضاً يخضعن لإدارة رب الأسرة، من خلال زوجته، المديرة الاجتماعية والاقتصادية لأمور عالمها العائلي.

أعتبر الدار (الداخل) للمرأة، والأسواق والمحلات (الخـارج) للرجـل، فانقسم المجتمع الطرابلسي الى عالمين "عالم النساء" و "عالم الرجال". فعالم النساء هو الدار الذي يعتبر المقر الأساسي لهـذا العـالم وفنـاء الدار، يمكن اعتباره ، بأنه المكان الوحيد الذي تـستطيع المـرأة مـن خلاله التواصل مع العالم الخارجي بدون حجـاب فحتـى الفتحـات او المشربيات كانت تغطيها الشعريات، ولا يدخل هـذا الفنـاء إلا رجـال العائلة وحتى هؤلاء لا يدخلونها في العادة إلا بعد الإعلان عن قـدومهم إما بإغلاق الباب بشكل لافت، او النحنحة، او المناداة (يا ساتر).

في ظل هذا النظام المركب، نجد إن الرجـال عمومـاً يخرجـون عنـد الصباح، ولا يعودون إلا عند المساء، حتى طعامهم يرسل الـيهم فـي أماكن عملهم، التي هي في الغالب دكاكين حرفية أو تجارية في السوق، الذي هو عالم الرجال حيث الدكاكين المتلاصقة والترابط العـائلي فـي ممارسة المهنة والحرفة الواحدة. هذا النظام التقسيمي فـي المجتمـع جعل الكل يعيش مع الكل من جنسه والكل يعرف الكل. فـالمجتمع فـي طرابلس كان مجتمعاً شديد التواصل القرابي، شديد التقـارب الـسكني وشديد الانفتاح الاجتماعي. الكل يعرف بأفراح الكل ويشارك فيها، والكل يساند الكل في الأحزان أو في حال ألمت بأحدهم مصيبة[1].

---

[1] مها كيال وعاطف عطية : تحولات الزمن الأخير، مختارات ش.م.م.، لبنان، ط1، 2001، ص 100- 101- 102.

الفصل الرابع : المساجد والمدارس:

رافق إتساع رقعة المدينة، حركة ملفتة للنظر في الإكثار مـن بنـاء المساجد الجامعة والمدارس التي كانت بمثابـة مـساجد صـغيرة، زاد عددها في طرابلس بشكل يندر مثيله إلا في أمهات المـدن الإسـلامية. وتعتبر طرابلس أكثر مدن لبنان كثافة بالمساجد والمدارس، وهذا يرجع الى إنها كانت عاصمة نيابة السلطنة حيث يقيم الأمراء وينـزل فيهـا سلاطين المماليك أثناء رحلاتهم الى الشام، فتسابق نواب السلطنة الذين تولوها، في بناء المساجد والمدارس والزوايا والتكايا والخانقاه وغيرها من المباني التي تضفي على المدينة المستجدة الطابع الإسلامي، وكذلك فعل أمراؤها وأثرياؤها، حتى إسترجعت صبغتها التي كانت عليها قبـل خضوعها للاحتلال الصليبي، إذ أكثر الصليبيون أثناء حكمهم لهـا مـن بناء الكنائس والأديرة، حتى عرف الربض القائم بـالقرب مـن النهـر بـ"وادي الكنائس".

وقد لاحظ الشيخ عبد الغني النابلسي أثناء زيارتـه لطـرابلس، كثـرة المساجد والمدارس فيها، فأثبت ذلك في رحلته إليها، منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، فقال: "إن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تعد ولا تحصى". ثم يضيف الى ذلك ما سمع من أهلها: "إنه كان بها 360 مدرسة"[1].

ومما يلفت النظر في مدارس مدينة طرابلس، في العصر المملوكي، إنها كانت تتركز أغلبها في مكان واحد، حول الجامع المنصوري الكبير، من ذلك على سبيل المثال المدرسـة الشمـسية، والمدرسـة الناصـرية،

[1] عمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، لبنان، ط1، 1981م، ج2، ص258.

والخيرية حسن، والمدرسة النورية، والطواشية، والقرطانية، والمشهد، وعلى مقربة منهم السقرقية والخاتونية. ولعل السبب في تركيـز تلـك المدارس في هذه المنطقة راجع الى الجامع المنصوري الكبيـر، كمـا ذكرنا سابقاً، كان أول جامع أقيم بمدينة طرابلس المحدثة، فكان يتوسط مدينة طرابلس، وكانت تحيط به جميع المرافق من أسواق ، وحمامـات وخانات.

لعبت المدارس دوراً هامـاً كمؤسـسات تعليميـة، وإن الفقهـاء مـن المسلمين هم حفظة العلم، والقـائمين عليـه، كـذلك لعبـت الأوقـاف المحسوبة على تلك المدارس، دوراً هاماً في ازدهار الحيـاة العلميـة، والثقافية، واستمرارها في العصر المملوكي.

الفصل الخامس: الأسواق والحرف

تميزت الأسواق في طرابلس، بأنها تمتعت باختصاص مهني قـوي، ومركز جغرافي محدد، ويعتبر الميل للتجمع في مكـان واحـد، ميـزة تقليدية لتنظيم العمل في مدن الشام، والمدينة الاسلامية بـشكل عـام. ويلاحظ "ماسينيون" إن هذه الميزة تمتعت بثبات واضـح منـذ ظهـور الاسلام حيث قامت المدينة على فكرة السوق الـذي يحتـوي الحـرف المهنية. وكون كل مهنة تحتل مكاناً خاصاً لها في المدينة، فقد كان إسم المهنة يحمل دلالات على ثلاث صعد:

1 – السوق الذي يجتمع فيه الحرفيون والتجار الذين يمارسـون تلـك المهنة.

2 – التنظيم الحرفي الذي يجمع بينهم وينظم عملهم، بحيث يمثل المكان الجغرافي، المدى العملاني لهذا التنظيم.

3 – المكان الذي يرتبط بشكل ثابت بإسم نوع النشاط الاقتصادي الـذي يمارس فيه ويتأسس عليه، بغض النظر عن التغيير الـذي يكـون قـد أصاب نوع النشاط الاقتصادي الممارس فيه.

ظهرت المهن المتخصصة في أسواق خاصة بها، وتوزعـت الأسـواق على محلات المدينة وعلى حاراتها. وكانت الأسواق تكتـسب شـهرتها من الحركة فيها، فيؤدي ذلك الى ارتفاع شـأن المحـلات والحـارات الموجودة فيها، لدرجة ان أعطتها أسمها. وتوزعت المحلة على عـدة أسواق، او اشتركت أكثر من محلّة في سوق واحد، حسب إمتداد هـذا السوق وحجمه. فظهرت الأسواق المعروفة بسوق النحاسين، وسـوق البازركان، وسـوق الكندرجيـة، وسـوق العطـارين، والـصياغين،

والحدادين، وسوق الخضرة، والسمك، وخان الخياطين، وسوق حـراج وغيرها...

إن عدد الأسواق والخانات الموجودة في طرابلس، يدل علـى أهميتهـا الاقتصادية، ولما كان السوق هو عالم الرجال، فقد كان مركـز توزيـع الاخبار التي تشكل حصيلة تفاعلات أبناء المحلّـة ونتـائج تحركـاتهم اليومية. وبهذه الطريقة كان الكل يعرف الكـل، وعلـى درايـة بكافـة نشاطاته وأفعاله العادية والحميمة. والكل، في الوقت نفسه، لا علاقة له بالكل، إلا بما تفرضه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية واحدية الجانـب على مستوى الذكور والإناث[1].

[1] عبد الغني عماد: مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية، دار الإنشاء، لبنان، ط1، 2002م، ص179- 180.

القسم الثالث

المنزل الطرابلسي ومواصفاته

إن البحث حول البيت الطرابلسي، في العهد المملوكي، تواجهه صعوبات مع ان أكثرية بيوت طرابلس القديمة تعود الى العهد المملوكي، إلا إن تلك البيوت قد طالتها الحداثة، فأصبح البيت الواحد يهدم لتقوم مكانه عمارة من عدة طوابق، فمن خلال الجولات الميدانية على تلك البيوت داخل طرابلس القديمة وأزقتها، وزيارة عدد من الدور القديمة التي ما زالت تحتفظ ببعض معالمها، وبالعودة الى سجلات محكمة طرابلس الشرعية، والتي لم تتناول تلك الحقبة التي نبحث فيها، فالسجلات تعود للعهد العثماني تبدأ في سنة 1666م وتمتد حتى 1883م. ولكن بالعودة الى التاريخ، نجد إن تلك البيوت ظلت تتمتع بصفتها المملوكية.

ونجد من خلال بحثنا إن تلك البيوت لم تبنى عشوائياً فقد أوجد المصمم المسلم، من خلال الخبرات التي أكتسبها من عملية التحضر، وبناء المدن، ونماذج للمسكن الذي يعبر عن احتياجات المسلم في مختلف بلاد العالم الاسلامي، وقد أدى تأثر المسكن العربي والاسلامي بالتوجيهات الدينية والعادات الشرقية، خاصة عامل الخصوصية والستر، الى جانب مراعاة العوامل البيئية والمناخية، الى تميزه ببعض الخصائص العامة. وقد أصبحت البيوت في العهد المملوكي أكثر إشراقاً وجمالاً، كنتيجة لما حدث من تطور على الفنون والعمارة، التي انتقلت

من حال التقشف التي كانت عليه في العهد الأيوبي، لتحقق المزيد مـن التجديد والتنويع في العناصر، والإسراف في الزينة والزخرفة. وكـان ذلك تعبيراً عن الترف والرفاه الذي نتج عن إنتهاء الحروب الـصليبية، والازدهار الاقتصادي الذي عرفته البلاد في أكثر أيام العهد المملـوكي. أصبحت العمائر ترفل في الزينة والزخرفة، داخلاً وخارجاً. ولـم يـدع الفنان مكاناً في الارض والسقوف والجدران إلا وكساه بعنصر زخرفي. والملاحظ إن الفن الذي ترسخ في العهد المملوكي في حقـل العمـارة والزخرفة وبناء البيوت، قد استمر لقرن او أكثر، حيث نجد آثاره فـي البيوت والعمائر المشيدة في أوائل العهد العثماني.

كان يطلق على مكان السكن إسم دار في أغلب الأحيان، وقد استخدمت كلمة بيت للدلالة على الشيء نفسه، كذلك استخدمت قليلاً كلمة حوش، ولكن للدلالة على مكان متسع او أكثر من دار واحدة.

ومن المواصفات التي يتميز بها البيت العربي، سماكة جدرانـه، ممـا يساعد على التخفيف من وطأة الحر والبرد. علماً بأنه لا يتعرض للجو الخارجي سوى جزء محدود من البيت، بسبب إندماج الأجزاء الأخـرى مع الجوار.

ومن تقاليد البيت العربي، أن لا تكون له غير واجهة واحدة او اثنتـين بسبب إتصاله مع البيوت المجاورة. وتتصف الواجهات الخارجية للبيت بالبساطة في عناصره المعمارية والزخرفية، إذا ما قورنـت بمـا فـي الداخل من عناية وجمال فني. وهي خالية من الفتحات المطلـة علـى الخارج، إلا من نوافذ ضيقة جعلت فوق مستوى الرؤية فـي الطـابق الأرضي. إما نوافذ الطابق العلوي فقد وضع لها حواجز تسمح للنـور

والهواء بالدخول منها وتسمى بالمشربيات. وأغاب الدور في طـرابلس كانت تتكون من طابقين، يصعد من الأول الى الثاني بـسلم حجـري او خشبي. وهي تتألف من وحدات سكنية تحيط بالفناء (الصحن او الفسحة السماوية) تتوسطها بركة او شجرة يلفهـا اشـجار مثمـرة كـالتوت والمشمش.

وتتكون تلك البيوت من :

1 – الدهليز الذي يصل بين باب البناء الخارجي والداخلي، وغالباً مـا يكون ملتوياً ومظلماً. فهو لا يؤدي الى فناء المنزل مباشرة، بل يوصل الى رحبة مربعة، ومنها الى ردهة، وتلك بدورها تؤدي الـى الفنـاء، وذلك حتى لا تنكشف فسحة البيت ومن فيها، على المـارة عنـد فـتح الباب الخارجي.

2 – الفسحة الداخلية السماوية وهي عبارة عن فناء مكشوف، والفناء جمعه أفنية، وفنى هو باحة – ساحة- صحن اي ما اتسع من الـدار[1]، ويعتبر قلب الدار الرئيسي، الذي تلتف حوله جميع العناصر، والفراغات الرئيسية للمنزل، وهو ملازم لكل بيت، وعادةً ما كـان يحتـوي علـى حديقة ونافورة لتلطيف الجو داخل هذا الفناء، وحيث كان يلعـب دوراً أساسياً كمنظم لدرجات الحرارة داخل المسكن.

3 – فسقية: وهي عبارة عن نافورة مياه تقام في وسط حوض الماء.

4 – الايوان او التختبوش: وكان يتواجد بالدور الأرضي، وهو عبـارة عن مساحة مسقوفة، يكون مرتفعاً عن الفسحة، تطـل علـى الفنـاء الداخلي، وكان يستخدم لاستقبال الضيوف من الرجال.

[1] عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الاسلامية، جروس بروس، بيروت، 1988، ص306.

5 – مربع: ويستعمل للاستقبال في بعض الأحيان او للمبيت خاصةً أيام الشتاء، وهو أيضاً مرتفع عن مستوى فسحة الدار بحوالي ربع المتـر او نصفه وهو مربع الشكل.

6 – طبقة: غرفة او أوده يتوصل الى كل منهـا علـى درج، وليـست بالضرورة فوق بعضها البعض، بل قد تتوزع يمينـاً وشـمالاً، وهـي مسقوفة بالجذوع والأخشاب ولهذه الطبقة كوات. والكوة هي عبارة عن فتحة صغيرة في أعلى الجدار، تطل أما على فـسحة الـدار، او علـى الطريق، او على السوق.

7 – المقعد: ويقع في الدور الأول، وهو عبارة عن مكـان مخـصص لاستقبال الضيوف من الرجال صيفاً، ويطل على الفنـاء الـداخلي مـن خلال واجهة ذات عقدين يتوسطهما عمود، وكان هذا المقعد غالباً مـا يواجه الشمال (او ينحرف عنه قليلاً في بعض الأحيان) من أجل إستقبال الرياح المحببة، التي عادةً ما تأتي من الجهة البحرية[1].

8 – تميز البيت العربي بوجود قاعة رئيسية للرجال، وأخرى للحـريم. وغالباً ما يأتي تصميم هذه القاعة على هيئة ايوانين يتوسطهما جـزء منخفض يسمى بالدور قاعة وبه نافورة، ويعلوها شخشيخة بالـسقف، يخرج منها الهواء الدافئ، ليحل محله الهواء البارد، الذي كان يـدخل الى القاعة عن طريق ملقف للهواء، او عن طريق المشربيات والنوافذ التي تطل على الفناء الداخلي المظلل[2].

---

1 يحيى وزيري، العمارة الاسلامية والبيئة، مصر، عالم المعرفة، الكويت، يونيو، 2004، ص171.
2 يحيى وزيري، المرجع السابق، ص 171- 172.

9 – المنزول: قد يرجع مصدر هذا المصطلح الى كلمة منزل، وهي مكان نزول القوم ويعرف المنزول أيضاً بالإيوان.

10 – كلار او كيلار: بداخل المطبخ كلار معقود بالمون والاحجار. والكلار هو المخزن الذي تحفظ فيه حوائج البيت. وليس بالضرورة ان يكون الكلار داخل المطبخ، قد يحتل غرفة مستقلة.

11 – مصيف- طيارة: يعلو المطبخ والكلار مصيف. والمصيف قد يكون سطح المنزل، أو قد يكون عبارة عن غرفة من غير سقف، لإنه غالباً ما ترد هذه العبارة مقترنة بصفة "مصيف سماوي".

قد يكون هذا المصطلح مشتق من كلمة صيف، لان استعماله يكون عادةً أيام الصيف.

كما يرد أيضاً مصطلح طيارة، والطيارة عبارة عن غرفة تبنى من البيوت القرميدية السقوف، وقد تسقف بالقرميد وتكون صغيرة الحجم، كثيرة الفتحات، تستعمل عادةً للنوم أو السهر أيام الحر، يتوصل إليها بسلم داخلي، هي إذن مكان مرتفع للإقامة أو المبيت.

12- الكنيف او المرحاض: وهو موجود أكثر الأحيان داخل المطبخ وفي صدره، أو قد نجده أيضاً في جانب من فسحة الدار. وهو عبارة عن ثلاثة جدر لا يصل علوها الى سقف البيت، وباب خشبي، وعادةً ما تكون مرتفعة عن المطبخ أو عن مستوى الفسحة بحوالي النصف متر.

ويتردد إن الاستحمام لم يكن يتم في المنزل، بل كان النساء أيضاً يذهبن الى الحمامات العامة. أما الأطفال فكانوا يستحمون في المطبخ.

13– خزينة: يمكن أن تكون الخزينة غرفة للسكن، أو غرفة لخزن المؤون، أو حوائج البيت.

14- البايكة او البائكة: وتعني مجموعة الأعمدة المتباعدة على خط مستقيم والموصولة بأقواس في أعلاها لتحمل السقف.

15– متخت: يختلف شكل المتخت ومكانه، فهو تارةً يعلو الايوان، وطوراً أخرى فوق الممشى، مرة بجانب السلم ومرة أخرى يتوسط الايوان.

16– ممشا: عبارة عن ممر صغير مسقوف يوصل بين الغرف.

17- كشك: بناء يقام في حديقة البيت لاستقبال الضيوف، وهو شبه رواق بارز عن بقية المنزل.

هذه هي عناصر البيت العربي او الطرابلسي المملوكي، ونظراً للحرمة التي تمتع بها المنزل، كانت شبابيك الدور الواسعة والتي تزود غرف البيت بالضوء والهواء تفتح على الصحن الداخلي، و" الصحن جمعه صحون فيأتي بمعنى الفناء وصحن الدار أي وسطها، وهو عبارة عن مساحة مكشوفة ومسورة"[1] .

أما شبابيك الدار الخارجية أو الكوة، فهي ضيقة ومرتفعة بالجدران الخارجية إذا ما فتحت فيها، وخضع ذلك لضرورة مناخية من جهة، دينية واجتماعية من جهة أخرى، فلا يجوز من الناحية الإسلامية أن يتعرض داخل الدار لأنظار الفضوليين من خارجه، فهي مصممة بالشكل الذي يتصل بالخارج دون العكس، والمفصحة عن وجود عالم آخر داخل هذه الجدران لا يتصل بالخارج إلا عبر الأبواب الموصدة، وعبر النوافذ المشبكة، الشعريات او المشربيات، وفي الوقت نفسه لا يقبل ان تشرف النوافذ الخارجية على حرم البيوت المجاورة.

[1] عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الاسلامية، جروس برس، بيروت، 1988، ص240.

لم يكن التأثير الديني قد طال فقط حرمة المنزل وبيوت الغير، فلقد كان لاتجاه القبلة وأحترامها تأثير كبير على عمارة المساكن حتى في العهود التي كانت قبل الإسلام، ونلمح هذا الأمر الإلهي في قوله تعالى:

وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتـاً واجعلـوا بيوتكم قبلةً واقيموا الصلاة وبـشر المـؤمنين [1]. أي ان ا سـبحانه وتعالى قد أمرهم ان يجعلوا بيوتهم قبل القبلة، وفي قول آخر أمرهم أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً[2]، خوفاً من قوم فرعون. ويظهر هذا التأثير القوي لاحترام اتجاه القبلة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي. ومن المألوف ألا ينام المسلم متجهاً برجليه باتجاه مكة المكرمة، ولا يوجد المرحاض أيضاً باتجاهها، وكل هذه المتطلبـات أخذت في الاعتبار عند تصميم غرف المعيشة والخدمات بالموقع، لذلك فإن المفاهيم قد أثرت بعمق في تخطيط المسكن والمدينة[3].

---

[1] سورة يونس، الآية رقم 87.

[2] تفسير ابن كثير، الآية 87 من سورة يونس، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1992، ج2، ص470.

[3] يحيى وزيري: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 2004، ص41.

الخـاتمــة

بعد ما قدمته الحضارة الإسلامية من نتاج أصيل في الفن والعمـارة، توقفت فجأةً عن العطاء وأصابها الجمـود، وتراجعـت أمـام الفنـون الأوروبية التي أخذت تياراتها تهب على العالم الإسـلامي فـي القـرن التاسع عشر، في ركاب الاستعمار، او بدافع الرغبة في التغيير وتقليـد الغرب كالذي حدث في عاصمة الدولة العثمانية حين اتجـه الـسلاطين بأنظارهم الى اوروبا، فاستقدموا المهندسين الأجانب، وأرسلوا البعثـات الى المانيا وفرنسا، وأخذت تشاد القصور والمباني العامة علـى نـسق فنون الباروك، والركوكو، والكلاسيكية الحديثة، الشائعة وقتئذٍ في العالم الاوروبي، والتي حلت محل فنون العمارة الاسلامية التي اثبتت وجودها وتألقت وتطورت على يد المهندس الشهير سنان وأمثاله. وفعـل مثـل ذلك محمد علي باشا وخلفاؤه في مصر، وقلدت ولايات الدولة العثمانية الأخرى، كالعادة، العاصمة استنبول. واستمر الانفتاح على الغرب، حتى بعد اليقظة والتحرر من الاستعمار. وتوقف الفنان في العالم الإسـلامي عن الابتكار والانتاج الأصيل، وفقد شخصيته الخلاّقة التي عاشت آلاف السنين، قبل الإسلام وبعده، وأصبح مشدوداً الى عجلة الغرب، يتلقـف فيه كل ما يجِد ويبتكر من علوم وفنون وتكنولوجيا. وهكذا أدار النـاس ظهورهم لعمارة الآباء والأجداد ليتراكم الغبار على تراثها ومكتسباتها.

إن النمو المديني المعيشي والمتواصل، الـذي تحولـت معـه المدينـة المملوكية الأم اليوم، الى منطقة من مناطق طـرابلس، تعـرف باسـم "المدينة القديمة" سببته متغيرات مجتمعية عدة، مترابطة ومتفاعلة مـع

بعضها بعضاً، جاءت كنتيجة لعوامل داخلية وتأثيرات خارجية متنوعة، طالت غالبية عناصر النظام المجتمعي لهذه المدينة.

انخرطت طرابلس في بداية القرن العشرين، في نمط الحيـاة المدينيـة المنفتحة على كل جديد، بدأ التوسع فـي المدينـة، فظهـرت منـاطق مستحدثة ازدحمت بساكنيها، دون أن تدخل سجلات النفـوس الخاصـة بها. ولم تبقَ في إطار أشكال البنايات وإتـساع الـشوارع، وتراصـف المحلات والمخازن ذات الأشكال المنمطة والمتشابهة، بل تعدت ذلك الى إنكشاف البيوت أمام بعضها بعضاً، او على جنباتها، من خلال النوافـذ والشرفات والأبواب. فخفت بذلك ضغوطات حرمات المنازل، وأضـحت الحركات ضمن المنزل عرضة للرؤية من الخارج. فأصبح بذلك عالمـا الداخل والخارج أكثر تقارباً والحواجز التي تفصل بينهمـا أكثـر رقـة وشفافية[1].

كثرت المباني الشاهقة نسبياً مقارنةً بما كانـت عليـه فـي المرحلـة السابقة، ووصلت في بعض الأحيان الى سبع او ثمـاني طبقـات: قـل ظهور الزخارف إلا في عوارض الشرفات والـشبابيك. كمـا تنوعـت الألوان المعتمدة، وتغيرت الألوان المستخدمة في البناء، وأستبدل الحجر الرملي بالحجر الخفان، وكثر استخدام مادة الترابة والإسمنت.

إن الفناء الداخلي المكشوف في الدار، كان يشكل المكان الوحيد الـذي يمكن ان تطل المرأة من خلاله، على الخارج، بدون حجاب. اما الفتحات الأخرى في المنزل كالشبابيك فكانت، كما ذكرنا سابقاً، مبنية على علـو

[1] مها كيال و عاطف عطية: تحولات الزمن الأخير، مختارات ش.م.م.، لبنان، ط1، 2001.

مرتفع ومغطاة بالشعريات. اما الأبواب فكان غالبهـا، قليـل الارتفـاع وضيق.

اختلاف الوضع كلياً في الدور الحديثة، اختفى الفناء المكشوف، الأبواب والشبابيك اتسعت وارتفعت، والحواجز الخشبية (الشعريات) فلقد اقتصر تواجدها على نوافذ الطوابق الأرضية في البيت، وذلك طبعـاً لحمايـة خصوصية الحياة الأسرية من أعين المتطفلين، أكثر منه كحاجز لحجب النساء. وأكبر دليل على ذلك، إختفاء هذا الحاجز مباشرة فـي الطـابق العلوي الأول. إلا إننا نرى انتشار البرادي للنوافذ الداخليـة والـستائر على الشرفات للحفاظ على الخصوصية الداخلية للمنزل.

إن نمط العمارة الحديث (المودرن) جاء ترجمـة لـسيطرة مـا يمكـن تسميته بالطراز العالمي المعاصر. هذا الطراز انتشر كمدرسة هندسـية جديدة في كافة عواصم الدول العربية الكبرى التـي كانـت، وبـسبب سيطرتها المباشرة او غير المباشرة على مختلـف منـاطق المتوسـط والعالم، هي المخططة لكافة اتجاهات "الموضة" بمعناها العام الشامل.

إن مسألة التفرنج قد طالت بشكل واضح كافة معطياتنا المعيشية المادية والفكرية. فأصبحنا نقلّد موضة الملبس التي تقررها مراكز صنع القرار في هذا المضمار، نقلّد موضة العمارة الجديدة التي هي أيضاً محددة في اتجاهاتها الفنية والتقنية المبتكرة في الغرب، حتى لو ان هذه الموضـة لا تتوافق ومعطيات منطقتنا المناخية. لقد ترسـخت الفنـون الدخيلـة، وأصبحت جزءاً من حياتنا بأشكالها وموادها ولم يعد بالامكـان تجاهـل هذا الواقع، بالرغم من عدم نجاحه في تلبية حاجات مجتمعنا والـتلاؤم مع بيئتنا الطبيعية، وعاداتنا وتقاليدنا. يمكننـا اعتبـار، ووفـق هـذا

المنظور، ان مسألة ربطنا مناطقياً بنظام العولمة قـد بـدأت جـذورها التاريخية منذ بدايات خضوعنا للسيطرة الغربية. فلقد بدأ الغرب ومنـذ ذلك الحين، بالقضاء التدريجي على الخـصوصيات الثقافيـة المحليـة لمناطقنا، كما لبقية المناطق التي خضعت لنفوذه عالمياً، وذلك ليربطهما بخصوصياته ويسيطر عليها.

إن نمط العمارة "المودرن" قلت فيه الزخرفة الخارجية. هذا الامـر وإن دلّ على شيء فهو يدل على تدنّي الاهتمام بالفنون الزخرفية الحرفيـة التي اشتهرت بها المنطقة عندنا، ويترجم بالتالي واقـع تراجـع هـذه الحرف واندثارها التدريجي[1].

وحسب أناس إن الفن الإسلامي انتهى دوره ومات، كما ماتت قبله فنون الحضارات الأخرى. وتساءل آخرون إن كان هناك أمـل فـي إحيائـه، وعودة الأصالة الى نتاجنا الفني والمعمـاري، لينتمـي الـى العمـارة الإسلامية، ويؤلف إحدى حلقاتها؟ ام إن ذلك أصبح مـستحيلاً بعـد أن غدت أمم الأرض شديدة التمازج والتلاقي، وتفتحت أبواب بلدانها لتبادل تيارات الفكر والثقافة، وشتى أنواع المعارف والفنون، وضروب التقنية والمبتكرات، الأمر الذي يفرض على الفن المعماري أن يصبح عالمياً لا ينتسب الى أمة او شعب معين، بل الى أشـخاص مـن ذوي المواهـب الخلاقة، الذين تذاع أعمالهم في انحاء العالم، فيـسارع النـاس الـى تقليدها والإفادة منها.

إن هذا الوضع الحضاري لعالمنا الحديث، وما أصاب العمارة الإسلامية من الجمود مدة قرن ونيف، يجعل من قضية الإحياء معضلة حقيقية.

---

[1] مها كيال و عاطف عطية: المرجع السابق، ص177- 178.

إن الفن الإسلامي الذي عاش أربعة عشر قرناً، ما يزال يحمـل قابليـة البقاء والتطور في البيئات العربية والاسلامية، لانـه ابـن الحـضارة الإسلامية التي لم تمت.

وما دام هناك إسلام خالد أبد الدهر فلا بد من مجتمع ينتمي اليه، ولا بد أن يكون لهذا المجتمع حضارته وفنونه وتقاليـده، وحياتـه الخاصـة والمتميزة[1].

نحن بحاجة الى مرحلة إنتقالية، يعتمد فيها على القديم والحديث معـاً، وذلك بالتوفيق بين مكتسبات العمارة الاسـلامية والعمـارة الحديثـة، لإخراج عمارة تحمل خير ما في هذين المصدرين، وتعبـر عـن روح العصر، وتلبي طموحات أهله الروحية والثقافية والاجتماعيـة، وتلائـم بيئتهم الجغرافية، وظروفهم الاقتصادية، وتحقق لهم الراحـة والرفـاه، ويتمثل فيها الجمال والمتانة.

وتحتاج هذه المرحلة الى عملية إصطفاء واعية من المكتسبات القديمة والحديثة، والى عملية تعديل وتحوير وتطوير، لتوليد الجديد من القديم، تماماً كما فعل أجدادنا الأوائل حين وضعوا أسس العمارة الإسلامية.

[1] عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، منشورات وزارة الثقافة السورية، ط1، 2000م، ج1، ص43- 44.

المصادر والمراجع

- بابا، محمد كامل: طرابلس في التاريخ، جروس برس، لبنـان، ط1، 1995م.

- التدمري، عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس الـسياسي والحـضاري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط1، 1981م.

- تفسير ابن كثير، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1992م.

- الريحاوي، عبد القادر: قمم عالمية فـي تـراث الحـضارة العربيـة الاسلامية، منشورات وزارة الثقافة السورية، سوريا، ط1، 2000م.

- عماد، عبد الغني: مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية، دار الانشاء، لبنان، ط1، 2002م.

- غالب، عبد الرحيم: موسوعة العمارة الاسـلامية، جـروس بـرس، لبنان، ط1، 1995م.

- كيال،مها و عطية،عاطف: تحولات الزمن الأخير، مختارات ش.م.م، لبنان، ط1، 2001م.

- وزيري، يحيى: العمارة الاسلامية والبيئة، عالم المعرفـة، الكويـت، 2004م.

الفهـرس